الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، وعلّمنا السُّنة والقرآن ، ووفقنا لمعرفة الحق ، ودلنا على ما يُحبّ .

أحمده - سبحانه - علّمنا من الجهالة ، وبصّرنا من العمى ، ووهبنا الفضل الذي نعجز عن شكره .

عرّفنا بحقه ، وماهي شريعته ، وما مواطن رضاه ، فنسأله التوفيق والهداية فإنّه لا حول لنا ولا قوة إلا به .

والصلاة والسلام على الناصح الأمين لأمته ، والدليل لهم على كل خير .

أما بعد /

فإنّ أولى ما صُرفت به الأوقات ، وبُذلت فيه الجهود ، واستُفرغت فيها الطاقات (**معرفة الله تعالى**)

وهو من أعظم الواجبات على العبد ، وأعظم الفقه هو التفقه في هذا الباب النفيس .

ومعرفة الله فيها من اللذة ما تصغر عندها كل لذة ، وهو الذي تكتمل فيه السعادة ، فهي المعرفة النافعة للعبد ، وهي السبيل لتعظيم الله تعالى ، والقيام بالعبودية الحقة له .

وهذا جُهد المقلّ ، وجمع الكسول ، وصياغة الضعيف في هذا الشأن ، فاسأل الله أن يجعل فيه البركة ، وأن يكتب له القبول ، وقد اختصرته لضعف النّاس في القراءة ، ورغبتهم في التقليل ، وقسّمته إلى خمسة أقسام على النحو التالي :

١ / أهمية التعرّف على الله .

٢ / طرق الوصول للعلم بالله تعالى .

٣ / ثمرات معرفة الله .

٤ / موانع معرفة الله .

٥ / الأنبياء عليهم السلام ومعرفة الله .

أولاً : أهمية التعرّف على الله :

من أعظم الأمور التي ينبغي للمسلم أن يعتني بها ، ويستفرغ جهده فيها ، ويجعلها أهمّ المهمات له في حياته ، هو :

أن يعرف ربه وخالقه ورازقه ومحيه ومميته ، لأنّه إذا عرف ربه ، عرف رباً عظيماً جليلاً مستحقاً لكل إجلال وثناء .

وعرف رباً مالكاً قادراً لا ينبغي صرف العبادات إلا له ، فلذا كان أوجب العلوم ، وأحقها بذلاً وجهداً هو :

معرفة الله سبحانه وتعالى .

(قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في هذا الخصوص :

ومعرفة الله قسمان:

١ – معرفة وجود ومعاني ، وهذا هو المطلوب منا .

٢ – ومعرفة كنه وحقيقة ، وهذا غير مطلوب منا لأنه مستحيل) انتهى كلامه رحمه الله .

فالمرء يسعى في القسم الأول ليبلغ هذا العلم النفيس ، فهو أنفع العلوم لصلاح قلبه .

ومع بذل الصادق جهده ووسعه في هذا السبيل الممكن فإنّه لا يستطيع له أن يعرفه على الحقيقة ، فإنّ الله ليس كمثله شيء ، ولكن حسب المرء أن يكون باذلاً في هذا السبيل ، مجتهداً في هذا الطريق ، ساعياً جهده في الوصول لهذا المطلب العظيم .

وإذا كان المرء يصير مقدّماً عند النّاس ، مرتفعاً شأنه إذا برع في علم من أمور الدنيا ، فكيف يكون هذا شأنه ومنزلته إذا عرف ربه وكان عالماً بالله تعالى !؟

إذ أنّ العلم به أُس العلوم ، وأساس المعارف ، وأهم المهمّات .

وممّا يدلُ على أهمية التعرّف على الله :

أولاً : حاجة النفس لمعرفة ربها :

فالنفس بلا معرفة ربها تائهة ضالة ، تعيش في دياجير الظلمات ، وبفوات هذا العلم يفوتها الخير الكثير ، بل أساسه وركيزته ، فمعرفة الله :

أعظم ما في الوجود ، وهي أنفس المطالب ، وما بعث اللهُ تعالى الرسلَ إلا لهذا المقصد النفيس (وهو: تعريف الخلق بالله سبحانه وتعالى وعظمته وأسمائه وصفاته ووجوب عبادته وحده لا شريك له) ، وحياتهم كلها لأجل غرسه في النفوس ، وجهادهم كله كان سعياً لتعزيز هذا المقصد النفيس .

تأمّل في دعوة نوح لقومه وهو يعرّف قومه بربهم ، مُلْفتاً النظر لآياته ، قال تعالى حاكياً جهاده في هذا الباب :

" مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) " سورة نوح .

وهذا إبراهيمُ يعرّف قومَه بربهم في آيات عظيمة تُذعن لها كل نفس ، وتستجيب لها كلّ فطرة سليمة ، قال سبحانه - حاكياً مقالته - :

" الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) " سورة الشعراء .

والقرآنُ مليءٌ من ذكر هذا النوع الذي يحتاجه الإنسان في معرفة ربه .

ثانياً : وممّا يدل على اهمّية معرفة الله :

كثرة الفتن وطغيان الدنيا على الخلق في هذا الزمان .

فإنّك إذا تأمّلات في حال الخلق - ونحن أفرادٌ منهم - تجد الطغيان الكبير للدنيا وتعشعشها في القلوب ، واستيلائها على النفوس ، فصار التفكير لها

، وانصـــــــرفت الهمـوم لشـأنها ، وينـام المـرء ويسـتيقظ وهـو يفكّـرُ فيهـا ، وهـذا - لعمـر الله - مـن أعظـم أسـباب فسـاد القلـب ، فكـان لزامـاً عـلى الناصـح لنفسـه أن يتعـرّف عـلى ربـه ليعـيش حيـاة الطمأنينـة والراحـة ، وليضـع الأمـور مواضعها اللائقة بها .

فمـن عـرف الله : عـرف حقـه الواجـب ، ومـا يجـب لـه مـن العبوديـة والتعظيم .

وعـرف حقيقـة الـدنيا : وأنّهـا لا تسـاوي شـيئاً فانشـغل بربـه عنهـا ، ولـم يلتفت لها ولم يعلّق قلبَه بها .

ثالثاً / وممّا يدل على اهمّية معرفة الله :

أن هذه المعرفة هي أعظم سبيل للقيام بحق الله .

فكـل مـن قصّـــــر في حـق ربـه ، أو تجـاوز حـدوده ، فإنّمـا هـو بسـبب التقصـير بحق ربه العظيم ، ولذا جاء التوجيه الرباني بتقواه بقوله :

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ "

ال عمران ١٠٢

قـال ابـن مسـعود : هـو أن يُـذكر فـلا يُنســـــى ، وأن يُشـكر فـلا يُكفـر ، وأن يُطـاع فلا يُعصى .

فتأمّـل قـول هـذا الصـحابي الجليـل - وهـو مـن علمـاء الصـحابة رضـوان الله عليهم - كيف عرّف لك التقوى .

وأنّ الله - لعظمتـه وجلالـة حقـه - يسـتحق أن يُـذكر عـلى الـدوام ، وأن يكون العبدُ دائم الاتصال به ، شديد التعظيم له .

وأن يُشكر فلا يُكفر ، فكل النعم تُصرف له ، وكل فضل يُسند إليه .

وأن يُطاع فلا يُعصى لعظمته وجلالة قدره .

رابعاً / وممّا يدل على اهمّية معرفة الله :

أنّ هذه المعرفة من أعظم أسباب رفعة درجات العبد في الجنة .

أيقن يا عبد الله ... وأيقني يا أمة الله .

أنّه ما رُفع مَنْ رُفع عند ربه ، ولا علت منزلته عند خالقه إلا بسبب صلاح قلبه ، وتعظيمه لخالقه .

(ولذا لمّا سُئلت فاطمة زوجة عمر بن عبدالعزيز عن حاله ، أجابت : أنّه وإن لم يكن كثير صلاة وصيام إلا أنّ تعظيمه لربه قد ملأ جوانحه)

فبذا رُفع القوم ، وعلت منازلهم وأقدارهم ، وقد قال من قال من السلف (ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقَرَ في نفسه)

قال بعضهم هو : إجلال الله وتعظيمه .

وقال بعضهم هو : هو سلامة قلبه وحبه الخير للمسلمين .

وأبو بكر رضي الله عنه جُمع له الخير بحذافيره ، وأحاطت به معاقد الفضل كلها .

فمعرفةُ الله تورث العبدَ الدرجات العلى في الجنّة ، وترفع منزلته فيها ، فالله يريد من العباد تعظيمه وإجلاله في قلوبهم لأنّ هذا التعظيم تتبعه كل العبوديات التي يُحبها الله ، وتجعله عبداً لله حقاً ، مستجيباً له صدقاً ، مؤتمرا بأمره ، منتهياً عن نواهيه ، فصارت معرفة الله سبيل كل خير للعبد الناسك ، والمؤمن المخلص لربه .

فهذه أربع دلائل تدلُّ على أهمية التعرّف على الله ، وصرف العمر لهذا المطلب النفيس .

طرق الوصول للعلم بالله تعالى :

قد جعل الله لكل مطلوب أسباباً توصله إليه ، ، وطرقاً يبلغ معه مقصوده - وأعظم المقاصد هو :(معرفة الله)

وينبغي لمن رام الوصول إليه أن يبذل قصارى جهده ، ويفرغ وسعه ليصل إلى هذا المقصد النفيس .

ومن هذه الطرق :

١/ النظر في هذا الكون الفسيح العجيب ، الذي جعل الله فيه كل شيء آية تدل على خالقها وموجدها .

وقد أحسن- سبحانه - خلْق كل شيء ، وأبدع كل موجود ، وجعل فيه ما يُبهر ويُرشد لعظمته ، فمن تأمّل في هذه المخلوقات متجرِّداً ومتأمّلاً ، أيقن بقضيتين مهمتين :

القضية الأولى :

أنّه لا يمكن أن تُوجد هذه المخلوقات نفسها - وهي بهذا الإتقان والتنظيم والإستقرار - بل لابد لها من موجد وخالق ومبدع ، وهذا الخالق - يقيناً - هو : (الله سبحانه تعالى)

لأنّه لو كان غير الله فإنّه لن يرضى ذلك الخالق - فرضاً - وهو مستحيل أن يدّعي أحدٌ أنّه خلق خلْقه ثم يدعه وما يدّعيه - تعالى الله عمّا يقول ويظنّ الظانون المفترون عليه الكذب - قال تعالى – مقرراً هذا البرهان - :

" بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ " ٩٢ سورة المؤمنون

فلذا أيقنّا أنّ هذا الخلْق له خالق ويستحيل أن يكون قد وُجد صدفة ، وأنّ خالقه جزماً هو : الله الخالق القدير العليم .

وشواهد هذا من الكتاب والسنة ودلائل العقل لا تُحصى .

قال تعالى :

" أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) " سورة النباء .

وقال سبحانه : " فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ " [عبس ٢٤-٣٢]

ومثل هذا في القرآن كثير.

والقضية الثانية :

أنّ خلق الله خلْقاً متقناً تاماً .

تأمّل في هذا الكون الفسيح ، وما فيه من مخلوقات عجيبة ، وتأمّل في استقراره ، وانتظام عيش النّاس فيه منذ الآف السنوات التي خلق الله فيها الكون والتي لا يعلم قدْرها إلا الله ، والكون مستقر ثابت ، يسير بنظام لا يختلّ ولا يتغير ، هذا يدل على عظمة خالقه ، ويدل على قدرة الله وتمام علمه وإحاطته .

فإمعان النظر والتفكّر فيه يدل العبدُ على ربه .

ومن طرق الوصول للعلم بالله :

٢ / **النظر في الآيات الشرعية** :

فمن قرأ القرآن العظيم بتأمّل وتدبّر وحضور قلب ، وكذلك قراءة سُنّة النّبي - خصوصاً المتعلقة بالتوحيد وأفعال الله - دله ذلك على الله ، وعرف عظمة ربه ، واتصافه بصفات الكمال المطلق ، والعظمة المطلقة ، ومن حرم نفسه هذا حُرم خيراً كثيراً ، وفاته علمٌ غزير ، ولذا جعل الله خشيته محصورة في العلماء - العالمين به وبشرعه -

ومن طرق الوصول للعلم بالله :

٣ / **كثرة عبادة التفكر .**

سُئلت زوجة أبي الدرداء رضي الله عنها :

(ما أكثر عبادة أبي الدرداء ؟ فقالت : التفكّر)

فالتفكّر في عظمة الله ، وجميلِ صُنعه ، وكثرةِ إحسانه وآلائه ...يثمر للعبد معرفته ، بخلاف الغافل عن هذه الطريقة ، فإنّه يعيش في دياجير الغفلة ، ويخرج من الدنيا ولم يذق أجمل ما فيه من معرفة الله تعالى .

ومن طرق الوصول للعلم بالله :

٤ / **اللجوء الصادق إلى الله تعالى بكثرة الدعاء** :

فالعبدُ العارفُ بربه قد عرف رباً عظيماً غنياً كريماً متفضلاً على العباد .

فكل نعمة هو فيها إنّما هي محض فضل الله .

وكل خير هو فيه إنّما هو جميل إحسانٌ منه .

وكل شر اندفع عنه فهو من آثار رحمته .

وحاجته لربه بعدد أنفاسه ، وانتظاره لفضله لا ينفك عنه كل وقت وآن ، فلذا تجد العبد العارف بربه لا يترك سؤال الله لجميع حوائجه ، ويُظهر فقره له لتتحقق مطالبه .

ومن طرق الوصول للعلم بالله :

٥ / **القراءة في كتب علماء السلف الربانيين** كابن القيم وابن رجب والذهبي ونحوهم ممّن اهتم بأعمال القلوب والدلالة على علّام الغيوب ، فالقراءة في هذا النوع من الكتب يزيد المعرفة بالله ، ويُوقفك على مواطن رضا الرحمن .

فهذه أربعة أسباب مختصرة لمعرفة الله تعالى ، فاحرص عليها .

معوقات التعرف على الله :

جعل الله من الدلائل عليه ما لا يستطيع أحدٌ إنكارها ، وأقام عليها من البراهين ما لا يردها إلا جاحد ، ولئن تجاهلها المتجاهلون إلا أنّ أثرها يبقى متردداً في النفوس ولا ينفك عنها ، فالاعتراف بوجود الإله أمرٌ فطري .

ولكنّ بعض الخلق يضعفون أمام سلطان الهوى ، وتغويهم نزغات الشيطان ، ولا يستطيعون الانفكاك ممّا عليه الآباء ممّا هو باطل فتتأثر نفوسهم ، وتضعف إراداتهم .

ولا تزال شياطين الإنس والجنّ يجلبون بخيلهم ورجلهم في إغواء بني آدم ، وصرفهم عن أعظم قضية في حياتهم - وهي قضية التوحيد - والوقوع في الشرك بسبب جهلهم بربهم ، ولعلي أذكر بعض المعوِّقات التي تجعل المرء جاهلاً بربه ، غير عارف بحق مولاه ، فمن هذه الأسباب :

١ / الجهل :

فالجهل بالله عائق كبير لمعرفته ، وصاد عنه ، ولذا نفى الله المساواة بين العالم والجاهل ، فقال سبحانه:

" أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ " سورة الرعد (١٩)

وقال :

" قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ " [الزمر: ٩]

وجعل الخشية في عباده العلماء ، فقال سبحانه :

" إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ " [فاطر: ٢٨]

وكتب الرفعة لهم ، فقال :

" يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ " [المجادلة: ١١]

فما أشرك أحدٌ بالله ، ولا عصاه عاص ، إلا وهو جاهل بربه ، غاب عن ذهنه عظمته ، وذهل لبُه عن حقوقه .

فلذا من رام معرفة الله فعليه بالعلم والمدارسة والاطلاع .

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - :

وعلم التوحيد أشرف العلوم ، وأجلها قدرا ، وأوجبها مطلباً ، لأنه العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته ، وحقوقه على عباده. اهـ

وأيسر الطرق وأنفعه في هذا الباب ، قراءة القرآن بتدبّر وحضور قلب ، فيقرأ القرآن وتفاسير السلف كابن كثير والطبري ومن المعاصرين السعدي – رحم الله الجميع - ليرى رباً عظيماً جليلاً ، موصوفاً بالكمال والجمال والجلال ، مستحقاً للعبادة ، منزهّاً عن كل عيب ونقص .

ويقرأ سنّة نبيه صلى الله عليه وسلم المبلّغ لشرع ربه ، فيدرك طرفاً من العلم بالله ، وبكمال شرعه .

ويتأمّل ما سطره يَراع أئمة الإسلام في بيان صفات الله المقتبسة من الكتاب والسُنّة ، والآثار المترتبة على هذه الصفات ، والواجب على العباد تجاه ربهم .

فالعلم بالله سبيل تعظيمه ، وطريق معرفته ، والجهل به أعظم الأسباب في الانقطاع عنه .

ومن معوقات التعرف على الله :

٢ / **اتبّاع الآباء والأجداد وما عليه غالب المجتمع في الضلالة والغواية** :

ويُعتبر هذا العائق من أشد العوائق في الصد عن الخير ، واتبّاع الحق .

لأنّ النفوسَ شديدة التعلّق بما عليه الآباء والأجداد والمجتمع ، شديدة التأثر به ، ، ويصعب عليها التحوّل عنه إلا بتجرّد ومقاومة ، وكم عانى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من هذا الداء العضال ، وكان سبباً في عدم اتباعهم ، والقرآن وسيرة الأنبياء مليئة بهذه الحقيقة البيّنة .

قال سبحانه في بيان هذه الحقيقة الثابتة :

" وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ " (الزخرف ٢٣)

وتأمل قوله " وكذلك .."

فهي قضية راسخة عند الأمم السابقة .

فمن تخلّص من هذا الداء فُتح أمامه السبيل في معرفة الله ، وعرف الواجب له ، وسلم من الضلالة والغي .

ومن معوقات التعرف على الله :

٣ / **حب الدنيا** :

وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، وهو يُعمّي ويَصمّ .

والعبد إذا تعلّق بالدنيا ، وشُغف بها حالت بينه وبين معرفة الله ، وكانت عائقاً كبيراً للوصول إلى الغاية النفيس في معرفة الله.

فالدنيا من شأنها أنّها تفتن وتُشغل ، ولذا جاء التحذير منها ، ومن زخرفها ، وقد جعل الله فيها من الفتن ما يجعل النفوس تميلاً معها .

فلذا كان لزاماً على العبد الحذر منها ، ويعرف حقيقتها ، وسرعة زوالها ، وتحوّل أهلها عنها ، والتيّقظ لفِتنِها حتى لا تشغله عن أسُّ المطالب ، وأعظم المقاصد .

ومن معوقات التعرف على الله :

٤ / **غفلة القلب** :

فغفلةُ القلب عن مصالحه ، معوِّق كبير عن معرفة الله .

فالغافل ظالم لنفسه ، مقصّر في النصح لها ، قد آثر هواه ، وانساق وراء غفلته ، فباء بالخسران .

وغفلةُ القلب تورث صاحبها الحسرة ، وتعقبها الندامة ، ويصير صاحبَها في غياهب سجن النفس ، ولذا كان جديراً بالناصح لنفسه أن يوقظها لمصالحها ، ويُبصّرها بالأنفع لها ، ولا أنفع للمرء مثل : معرفة الله ، وتبصير النفس بحقوقه وواجباته ، وخطورة غفلة النفس .

ولقد كان سلفنا الصالح شديدي التيّقظ من هذه الغلفة ، عظيمي التحرز منها ، فكانوا نَصَحة لأنفسهم ، طالبي النجاة لها بصدق ، فأبقى الله لهم الذكر الحسن في الأجيال من بعدهم ، وكانوا قدوات صالحين لهم .

ومن معوقات التعرف على الله :

٥ / اتباع الشهوات :

فالشهوة تُغلق على القلب كل خير ، وتجعل المرء حبيس نفسِه الأمّارة بالسوء ، وشهوته الطاغية ، وكلما تحرر العبدُ من شهوته كان أقرب النّاس للزوم الطريق المستقيم (الموصل لكل خير)

وبحر الشهوات لا ساحل لهم ، فهو يَجرُّ على صاحبه الويلات ، ويجعله حبيس شهوته ، فيبقى في دياجير الضلال ، بخلاف من غلب شهوته وسيطر عليها ، صفت له نفسُه ، وطهر قلبُه ، وصار مهيئاً لمعرفة ربه ، وتهيأ ليكون من عباده المخلصين ، قال تعالى عن يوسف عليه السلام - وهو الذي غلب شهوته - :

" كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ "

(سورة يوسف / ٢٤)

ومن معوقات التعرف على الله :

٦ / **التساهل بالشبهات** :

فورود الشهبات على العبد ، وركون النفس لها ، وعدم دفعها حتى تستقرّ - عياذاً بالله – سبب للضلال ، لأنه إذا استقرت الشبهة ، تاه المسكين في بحورها ، وكلما خرج من واحدة دخل في أخرى ، فتتابع عليه حتى يضل ضلالاً مبيناً .

فالواجب على الناصح لنفسه أن يبتعد عن الشبهات ولا يغترّ بنفسه ، وينأى عن الحوم حولها ، ويبتعد عن غرور النفس فإن الشُبه خطّافة والقلوب ضعيفة .

وبعد

فهذه ستُ معوِّقات تحول بين العبد وبين معرفة ربه ، وهي : (الجهل ، واتّباع الآباء في ضلالة ، وحب الدنيا ، وغفلة القلب ، والشهوات ، والشبهات)

فحريٌ بالناصح لنفسه أن يحذر منها ليسلم من شرها .

ثمرات معرفة الله :

العلم بالله له ثمرات عظيمة جليلة ، لا يحيطها مقال ، ولا يجمعه جامع ، لأنّها أعظم غنيمة للمرء ، وهي أنفس فضل يتفضّل به اللهُ على عبده ، فكيف يستطيع أحدٌ أن يحصر فضل معرفة الخالق العظيم الذي جمع أجمل الأسماء وأحسن الصفات في موضع واحد ؟!

ولعلي أن أذكر باختصار طرفاً من هذه الثمرات ، فمنها :

١ / تعظيم الله حق التعظيم ، وإجلاله حق الإجلال :

وهذه لعمر الله نفيسة من نفائس هذا العلم ، وثمرة تتبعها ثمرات لا منتهى لها ، إذ أنّ العبد إذا عرف ربه ، أطاعه حق الطاعة ، واستجاب له أعظم استجابة ، وأيقن أنّه لا مستحق للعبادة إلا هو ، ولا يستحق التمجيد والإجلال إلا ربه ، فتقرّب إليه بأنواع القربات .

وصرف له أعظم الواجبات ، وهي : العبادة .

ونجى من أشنع الخطيئات ، وهو : صرف العبادة لغيره سبحانه .

ومن ثمرات معرفة الله :

٢ / تعلّق القلب به والسلامة من التعلق بالمخلوقين :

وما أصاب النّاس اليوم من همّ وغمّ ، وضيق وأمراض إلا بسبب تعلقهم بمخلوقين أمثالهم ، فهم لن يجدوا عندهم إلا الخسارة والهوان ، فهؤلاء المعَظَمون من دون الله يخافون ممّا تخاف ، ويرجون ما ترجو ، وهذا المسكين المتعلق بهم قد أنزلهم منزلة لا يستحقونه ، فيتفاجأ بهذا الحال الذي هم عليه ، فيخيب ظنّه ، وتمرض نفسه ، فلذا كانت من ثمرات معرفة الله : تعلق القلب به ، وحسن الاعتماد عليه ، وصدق التوجه إليه .

ومن ثمرات معرفة الله :

٣ / مايجده العبد من اللذة في معرفة الله تعالى .

فالعارف بربه يعيش حياة السعداء ، ويتلذذ بهذه المعرفة ، ويذوق معها طعم الإيمان .

قال ابن تيمية : أعظم مافي الدنيا معرفة الله ، والأنس به .

يشعر بهذا السالك وهو يناجي ربه ، ويتأمّل بفضله وهو يؤدي حقه ، ويعترفُ بجميل إحسانه كلما زادت معرفته .

ومن ثمرات معرفة الله :

٤ / تحقيق التوحيد على الكمال .

فمن عرف الله ربه حق المعرفة لن يتَلبس بالشرك لأنّه قد عرف رباً كاملاً من جميع الوجوه ، مستحقاً لصرف العبادة له وحده دون سواه ، فيفوز برضاه وجنته ، وينجو من النار .

ومن ثمرات معرفة الله :

٥ / التعبّد لله بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى .

فمن عرف الله بأسمائه وصفاته تعبّد لربه بهذه الأسماء.

فمن عرف رباً رزّاقاً لم يتلفت لمخلوق في مسألة الرزق ، ولا يأكل حراماً لعلمه أنّ الله رزّاقاً وقد تكفّل برزقه .

ومن عرف ربه بتمام العلم لا يُخادع ربه ، ولا يكون في قلبه إلا الإخلاص للعليم ، المحيط بالنوايا ، والعليم بالسرائر ، ومكنونات الضمائر .

ومن عرف ربه بسعة سمع ربه ، وكمال بصره لم يتجرأ على المعصية لأنّه قد آمن تمام الإيمان بإحاطة سمع الله وبصره بكل أموره .

وهكذا مع كلِّ اسم من أسماء الله وصفاته يتعّبد لربه ، ويستثمر هذه المعرفة في تحقيق العبودية ، والفوز برضا الرحمن سبحانه .

ومن ثمرات معرفة الله :

٦ / محبة الله .

فمن عرف إنعام الله عليه في دينه ودنياه ، أحبّه لا محالة ، وهذه – لعمر الله – من أعظم العطايا .

يتذكر الموحِّدُ أنّ الله وهبه أعظم مِنّة في الوجود وهي :

نعمة التوحيد ، والسلامة من الشرك ، وهما السبيل لأعظم مطلوب

وهو : الفوز بالجنَة .

والنجاة من أفظع مرهوب ومخوّف وهو :

النجاة من النار .

ومعها يمتلئ القلب بمحبة الله .

وقل مثل ذلك عندما يدله الله على المسلك الصحيح في العبادة بسلامته من البدعة ، والنجاة من المعاصي .

وإذا تأمّل نعم - أيضاً - النعم الدنيوية ، وجد نعماً تغطيه ، وتحيط بها ممّا يوجب شكر المُنعم ومحبته .

فهذه - أيها السالك - ستُ ثمرات لمعرفة الله ، الواحدة منها خير من الدنيا وماعليها .

الأنبياء عليهم السلام ومعرفة الله :

جعل الله عز وجل الأنبياء عليهم السلام الأسوة الصالحة للعالمين ، والقدوة الناصحة للسالكين ، وجعلهم - سبحانه - النموذج البشري في علاقة العبد مع ربه ، ولذا أُمر نبيُنا - وهو الإمام لهم - أن يقتدي بهم ، ويتأسى بفعالهم ، فقال له ربُه :

" أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ " سورة الأنعام (٩٠)

وقال له في شأن أبيه إبراهيم عليه السلام :

" ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " سورة النحل (١٢٣)

وإذا تأمّلت في حال الله الأنبياء عليهم السلام في باب المعرفة بالله ، وجدت شأناً عظيماً ، ومنهجاً سديداً ، وطريقاً بيّناً واضحاً .

ولن تسع صفحات يسيرة وصف حالهم في هذه المعرفة ، فحياتُهم كلها استغراق فيها ، وتعليماً لأممهم ، وتوجيهاً سديداً لهم ، وترجمة عبادية لهذه المعرفة ، فعليهم صلوات ربي وسلامه في كل وقت وآن .

فأبوهم آدم وحواء عليهما السلام عرفا ربهم بالرحمة والمغفرة وقبول التوبة ، فأنابا واستغفرا .

قال تعالى - عنهم - :

" قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ " سورة الأعراف (٢٣)

فمن كان توّاباً رجّاعاً لربه كان فيه خُلق من أخلاق أبيه آدم عليه السلام ، ومن أعرض عن ربه صار فيه خُلق من أخلاق إبليس .

نوحٌ عليه السلام :

وهو أوّلُ الرسل إلى أهل الأرض ، ومن أولي العزم منهم - وهم أعرف البشر بربهم - عرف ربه بعزته وقدرته ، وحسن التوكل عليه .

وكان متجرّداً من الدنيا لا يسأل على دعوته أجراً ، ولا يرجو من ورائها نوالاً ليقينه بخستها ، وعظيم الأجر من الله ، قال تعالى :

" وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ "

يونس ٧١ - ٧٢ .

ودعا قومه إلى التوحيد وعرّفهم بعظمة ربهم ووجوب توقيره وإجلاله ، قال تعالى :

" لقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" سورة الأعراف ٥٩ .

وبيّن لقومه صفات الله وكماله ، وتفرده بأرزاق العباد ، وعلم الغيب ، واستغفاره لذنبه ويقينه بحاجته واضطراره لرحمة مولاه ، فعليه أفضل صلاة وأزكى سلام .

قال تعالى : " مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) سورة نوح

هودٌ وصالح عليهما السلام :

وهما من أوائل الرسل الذين أرسلهم الله لأهل الأرض ، ودعوا إلى التوحيد ونهوا عن الشرك والفساد في الأرض ، فكانت العاقبة لهما ولمن معهما من المؤمنين .

عرّفوا قومَهم بعظمة الله وقوته وشدة بطشه وانتقامه ، وأيقنوا بحماية الله لهم وإن لم يكن معه قوة من البشر ، لكنّهم كانوا يأوون إلى ركن شديد فعليهما الصلاة والسلام إلى يوم الدين .

قال تعالى :

" وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) سورة الأعراف .

وكذلك صالحٌ عليه السلام كان ناصحاً لقومه ، حريصاً على هدايتهم ، عرّفهم بربهم ، فقال سبحانه :

" إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) " سورة الشعراء .

فكانا ناصحين لقومهما باذلا الجهد في هدايتهم ولكن طغوا وأعرضوا فكان لهم خزي الدنيا والآخرة .

إبراهيم عليه السلام والمعرفة البيّنة بالله .

إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ، وأُمر نبيُنا بالتأسي به ، ومراحل حياته كلها تحكي هذه المعرفة الجليلة ، ففي شبابه يُنكر على قومه عبادة الأصنام والتوجه الباطل لهذه المخلوقات ،فقال سبحانه :

" وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) (الأنبياء)

ومع أبيه يظهر نصحه ، وبذله المعروف في تبصير والده حقيقة وصفات الإله الذي يستحق العبادة ، والأجدر بأن تتوجه له القلوب ، في سياقات بليغة تحمل نُصحاً وبذلاً ، ومعرفة تامّة بالإله الحق المبين ، فقال سبحانه - مثنياً عليه - :

" وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) (مريم)

وفي محاجته لقومه ولمدّعي الربوبية صور كاملة بيّنة لهذه الآثار وكمال هذه المعرفة .

قال تعالى :

" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) الأنعام .

والآيات في ذكره كثيرة جداً ، مما يدل على عظيم جهاده عليه السلام ، وكلها آيات في التوحيد ، ومعرفة الله ، وإثبات وحدانيته .

موسى الكليم ومعرفة الله :

عرف موسى عليه السلام إحسان الله له في صباه ، وحفظه له وهو في المهد ، وعنايته به وهو بيت عدوه فرعون ، وإرجاعه إلى أمّه كي تقرّ عينُها ولا تحزن ، فاعترف بهذا الفضل ، وذكره في معرض امتنانه عليه ، فقال سبحانه :

" وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) سورة القصص .

وعرف - أيضاً - إحسان ربه إليه وقد قتل رجلاً خطأً ، وأنّ الله غفور رحيم ، فقال سبحانه - في معرض هذه المنّة - :

" وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ " (١٧) سورة القصص .

ولمّا توجه تلقاء مدين سأل ربه الرشاد لأنّه قد أيقن بربٍ كريم لا يُضيّعُ عبادَه الصالحين ، ، وقد رأى تتابع الإحسان عليه ، فسأل المزيد من الكريم لمعرفته بسعة جوده وبسطة رزقه ، فدعا بدعوات كريمات شقت عنان السماء وسمعها الكبير المتعال :

" وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ

امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) سورة القصص .

وهكذا في بقية حياته وهو داعية إلى ربه منذرٌ لقومه مبشَّرٌ للمؤمنين منهم ، فكان ربُه به حفياً ، فأنجاه وأكرمه وناداه وناجاه في عطايا خصه بها بين العالمين .

فعرف فضل ربه عليه ، وعظيم إحسانه لديه ، وعلّم قومه ورباهم على هذه المعرفة حتى لقي ربَه ومولاه .

عيسى عليه السلام ومعرفة الله :

جعل الله عيسى عليه السلام آية من آياته ، ودليلاً على وحدانيته وقدرته ، وابتلى به العباد حكمة واقتدار .

ومن تأمّل في حياة هذا النبي الكريم يجد منّة الله على عباده في معرفة ربهم وصفاته ، تأمّل في حاله وهو المهد صبياً ، وكيف عرّف بربه ، ودعا للتوحيد وهو في المهد ، فقال تعالى عنه :

" قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) سورة مريم .

فعرف عظمة ربه وانفراده بالوحدانية والألوهية ، ودعا قومه لهذه العقيدة الناصعة الصافية ولكنّهم أبوا إلا الكفران فباؤا بالخسران .

في موطن آخر عرّف قومه بعظمة ربه وأنّه يحيي الموتى ، ويبرئ الأكمه والأبرص- مما لا يقدر عليه إلا الله ، فقال سبحانه في بيان معجزاته :

" وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) سورة آل عمران .

وأعلن أنّه لا يمكن أن يستنكف ويتكبّر على ربه ، كيف يتكّبر وهو العبد الضعيف المحتاج لربه في كل نفس من أنفاسه !؟

قال سبحانه - في بيان تذللّه لربه ومولاه - :

" لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) سورة النساء .

وحياته وحياة جميع الأنبياء كلها توحيد واعتراف بفضل الله تعالى .

أيوب وذا النون عليهما السلام :

ذكر الله قصتهما في مواضع من كتابه ، وما لحقهما من بلاء في دعوتهم وأنفسهم ، وكيف كان اللجوء لله السمت البارز في هذه السيرة العطرة ، وحسنّ الظن بالله قد أحاط بحياتهم ليكونا قدوة للعالمين ، ولتكون سيرتهما نبراساً للعالمين لمن أرادوا معرفة قرب الله من عباده ، وإنقاذه لهم من المهالك ، ولتتعلّق القلوب بالله وحده دون سواه .

قال سبحانه - في قصة بلاء أيوب وحسن ظنه بربه - :

" وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) (سورة الأنبياء)

وقال سبحانه - في ذكرِ منّته على يونس - :

" وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) (سورة الأنبياء)

ونبينا محمد كان عظيم المعرفة بربه ، وحياته كلها ترجمة لهذه المعرفة ، فقد كان يرفع الدعوات ، ويُثني بجميل الثناء على ربه ، فصلوات ربي وسلامه عليه .

في رحلة الطائف لاقى من الهمّ والغمّ والصد ما تنأى الجبال عن حمله ، ومع ذا يرفع هذه الدعوات العظيمة معترفاً بفضل ربه ، سائلاً ربَه الرحمات .

" اللّهمّ إليك أشكو ضعف قوّتي وقلّة حيلتي وهواني على النّاس، يا أرحم الرّاحمين، أنتَ ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيدٍ يتجهّمني؟ أم إلى عدوٍّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الّذي أشرقت له الظّلمات، وصلح عليه أمر الدّنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك، لك العتبى حتّى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلاّ بك "

ويوم بدر يروي لنا قصة هذه المعرفة وهذه الافتقار .

روى مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله - صلى الله عليه وسلم - القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه:

"اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض" فما زال يهتف بربه مادّاً يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال يا نبي الله! كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك "

وسنته مليئة بالدعوات التي تعلّم الأمّة كيف يناجون ربهم ، ويعترفون بفضله ، ومن ذلك قوله :

" اللّهم إِنِّي أَسأَلكَ حُبَّكَ، وَحُب من يُحِبّكَ، وَالعمَل الذي يُبَلِّغني حُبَّكَ، اللّهم اجعل حُبَّكَ أَحَب إِلَيَّ مِن نَفسي، وأَهلي، ومِن الماءِ البارد" روَاهُ الترمذيُّ.

وكان يستغرقُ في مناجاته لربه في صلاته ، تقول عائشة رضي الله عنها واصفة صلاة قيام الليل لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

" يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ " رواه البخاري ومسلم .

وكان يقول في مناجاته لربه :

" اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ " راوه مسلم .

وبعد

فهذه جولة عطرة في أحوال بعض الأنبياء عليهم السلام في قضية معرفتهم بربهم سبحانه ، ولو أردنا الاستقصاء لطال بنا المقام ، فنسأل الله أن يرزقنا اتباع سبيلهم .

وبذا تمّ هذا البحث ، فأحمد الله تعالى أن وفقني لهذا الجمع الذي هو من أشرف العلوم ، وأنفس المطالب .

واسأله القبول والمثوبة .

كتبه مثنياً على ربه مصلياً على نبينا عليه الصلاة والسلام /

عادل بن عبد العزيز المحلاوي

غُرة شهر رجب لعام واحد وأربعين وأربع مئة وألف

بريد الكتروني addeel333@gmail.com